ISSN: 1112-7872 مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ
E-ISSN: 2600-6162 مجلد: 17 عدد: 01 جويلية 2021
ص.ص 608- 620. العنوان: الحرب والمثقف بالمغرب الأوسط خلال العهد...

الحرب والمثقف بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني

محمد ناصري[1] أ.د.خالد بلعربي[2]
طالب سنة ثالثة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة سيدي بلعباس[1]
mohammedunivsba@gmail.com
أستاذ التعليم العالي،كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية،جامعة سيدي بلعباس[2]
belarbi.tlemcen@yahoo.fr
تاريخ الإرسال: 2019/11/17 ؛ تاريخ القبول: 2020/60/26

The war and the Intellectual in zianide state

Abstract:

Historical pages of islamic political system in middle east shows that political powers as it is considered as the main march for the helm of government needs always to weeve a network of relationship with society in general that is pushed by set of goals that seeks to achieve it with in the frame wars of state and it is strategies and perhaps from these social grades which government to form relations is in it’s political priorities for instance we memtion the category of scientist that consider and sees this priority as imperatige considering that emerging state institutions from this philosophy is based on scientist such as writting offices and other fields and what is worth tomentions that the zianide era know a wide spread of scientist especially in religion science and that what itw as obliging the sultan to get closes to them because this scientific elite wasn ‘t the kind that involves itself but was influencing society and this is what is initially to recognize the relation between authority and educated people during the periode of war and the treaking ways of a politician with a well educated man and it’s consequences on intellectuel.

Keywords:war؛ scientist؛ zianide؛ ibn khaldoun؛ tlemcen.

الملخص:

السلطة السياسية -باعتبارها مسيرة لدفة الحكم- بحاجة دوما إلى نسج شبكة من العلاقات مع مختلف الشرائح الإجتماعية، تدفعها في ذلك مجموعة من الأهداف والغايات التي تسعى إلى تحقيقها في إطار توجه الدولة واستراتيجيتها، ولعل من بين الشرائح الإجتماعية التي سعت السلطة إلى تكوين علاقات معها ضمن أولوياتها السياسية نذكر فئة العلماء، على أن نموذج السلطة في أدبيات الفلسفة السياسية الإسلامية كان يحتم هذه الأولوية، باعتبار أن مؤسسات الدولة المنبثقة من هذه الفلسفة تقوم في تسييرها على العلماء، كمؤسسة القضاء والحسبة ودواوين الكتابة وغيرها من المؤسسات.

يجد المطلع على التاريخ الإسلامي أن أنماط هذه العلاقة بين السلطان والمثقف عرفت تذبذب في نوعية هذه العلاقة بين الحظوة والنكبة، وترتبط هذه الأخيرة بعدة معايير تؤدي بالمثقف من مجالس السلطان إلى غياهب التهميش وغضب السلطان، ومن زاوية أخرى تتنوع أطر هذه العلاقة بين حالتين وهما السلم والحرب.

على أن أمراء الدولة الزيانية لم يشذوا عن من سبقهم من أمراء الرستميين والفاطميين والحماديين والمرابطين والموحدين، فإذا كانت تجربة عبد الله بن ياسين بما انجر عنها من ترسيخ سلطة الفقهاء، وتجربة المهدي بن تومرت كعالم يضع أسس غير بعيدة عن أمراء الدولة الزيانية، وهو ما حذى بهم إلى بناء علاقات مع العلماء، قوامها التقريب والحظوة.

جدير بالذكر أن العهد الزياني عرف انتشار كبير للعلماء، وبالخصوص في العلوم الدينية، وهو ما كان يفرض على السلطان التقرب منهم لأن هذه النخبة العلمية لم تكن من ذلك النوع المنطوي على نفسه، بل كانت نخبة فاعلة في المجتمع مؤطرة للمجتمع التلمساني تدريسا وإفتاءا وتوجيها، لكل هذه الإعتبارات كانت ضربا من المجازفة أن يغض السلطان الطرف عنهم.

ولا يمكن أن نغض الطرف عن الهدف الواضح للعيان والمتمثل في سعيهم الحثيث لكسب نوع من الشرعية، خصوصا في شذوذهم عن الوصفة السياسية المتمثلة في العصبية القبلية والدعوة الدينية لتأسيس دولة، وبقراءة إحصائية لصراعات الدولة الزيانية مع المرينيين والحفصيين والمعارضين من القبائل العربية والبربرية نجد أن الوجود السياسي للدولة الزيانية كان في معظمه فترات حرب تتخللها فترات سلم وليس العكس.

وهو ما يحيلنا مبدئيا أن العلاقة بين السلطة الزيانية والمثقف تمت في أغلب الأحيان في إطار الحرب، وهو ما نسعى إلى التركيز عليه في هذا المقال من خلال تتبع لحالة المثقف خلال فترة الحروب، وأنماط تعامل السياسي الممتشق للسيف مع المثقف، والإرتسامات الذهنية للحرب في مخيلة المثقف وانعكاساتها على الإنتاج الفكري.

الكلمات المفتاحية: الحرب ؛ المثقف ؛الدولة الزيانية ؛ابن خلدون ؛تلمسان.

مقدمة:

تبين صفحات التاريخ السياسي الإسلامي سواء في الغربالإسلامي أو المشرق الإسلامي، أن السلطة السياسية -باعتبارها مسيرة لدفة الحكم- بحاجة دوما إلى نسج شبكة من العلاقات مع مختلف الشرائح الإجتماعية، تدفعها في ذلك مجموعة من الأهداف والغايات التي تسعى إلى تحقيقها في إطار توجه الدولة واستراتيجيتها، ولعل من بين الشرائح الإجتماعية التي سعت السلطة إلى تكوين علاقات معها ضمن أولوياتها السياسية نذكر فئة العلماء، على أن نموذج السلطة في أدبيات الفلسفة السياسية الإسلامية كان يحتم هذه الأولوية، باعتبار أن مؤسسات الدولة المنبثقة من هذه الفلسفة تقوم في تسييرها على العلماء، كمؤسسة القضاء والحسبة ودواوين الكتابة وغيرها من المؤسسات.

ويجد المطلع على التاريخ الإسلامي أن أنماط هذه العلاقة بين السلطان والمثقف عرفت تذبذب في نوعية هذه العلاقة بين الحظوة والنكبة، وترتبط هذه الأخيرة بعدة معايير تؤدي بالمثقف من مجالس

السلطان إلى غياهب التهميش وغضب السلطان، ومن زاوية أخرى تتنوع أطر هذه العلاقة بين حالتين وهما السلم والحرب.

وأمراء الدولة العبد وادية أو الزيانية، لم يشذوا على من سبقهم من أمراء الرستميين والفاطميين والحماديين والمرابطين والموحدين، فإذا كانت تجربة عبد الله بن ياسين بما انجر عنها من ترسيخ سلطة الفقهاء، وتجربة المهدي بن تومرت كعالم يضع أسس غير بعيدة عن أمراء الدولة الزيانية، وهو ما حذى بهم إلى بناء علاقات مع العلماء، قوامها التقريب والحظوة.

والجدير بالذكر أن العهد الزياني عرف انتشار كبير للعلماء، وبالخصوص في العلوم الدينية، وهو ما كان يفرض على السلطان التقرب منهم لأن هذه النخبة العلمية لم تكن من ذلك النوع المنطوي على نفسه، بل كانت نخبة فاعلة في المجتمع مؤطرة للمجتمع التلمساني تدريسا وإفتاءا وتوجيها، لكل هذه الإعتبارات كانت ضربا من المجازفة أن يغض السلطان الطرف عنهم.

ولا يمكن أن نغض الطرف عن الهدف الواضح للعيان والمتمثل في سعيهم الحثيث لكسب نوع من الشرعية، خصوصا في شذوذهم عن الوصفة السياسية المتمثلة في العصبية القبلية والدعوة الدينية لتأسيس دولة، وبقراءة إحصائية لصراعات الدولة الزيانية مع المرينيين والحفصيين والمعارضين من القبائل العربية والبربرية نجد أن الوجود السياسي للدولة الزيانية كان في معظمه فترات حرب تتخللها فترات سلم وليس العكس.

وهو ما يحيلنا مبدئيا أن العلاقة بين السلطة الزيانية والمثقف تمت في أغلب الأحيان في إطار الحرب، وهو ما نسعى إلى التركيز عليه في هذا المقال من خلال تتبع لحالة المثقف خلال فترة الحروب، وأنماط تعامل السياسي الممتشق للسيف مع المثقف، والإرتسامات الذهنية للحرب في مخيلة المثقف وانعكاساتها على الإنتاج الفكري.

دور العلماء في السفارات والمساعي السلمية:

في إطار الصراع العسكري المتواصل بين الزيانيين والمرينيين، فرضت بعض الفترات أن يحتكم الطرفين إلى الهدوء وأخذ قسط من الراحة ليس حبا في السلم، وإنما لتجديد النفس تحسبا لمواصلة الصراع، فكان وأن عقدت السلطة الزيانية عدة معاهدات سلمية مع

المرينيين، ولم يكن يوجد أفضل من العالم ليتولى هذه السفارات بما يحيله كسفير للسلم، وأيضا بما تمتع به من مؤهلات علمية، ورغم قلة المعلومات المتعلقة بهذا الجانب إلا أن المصادر حفظت لنا بعض الشذرات، فبعد خروج زيري بن حماد زعيم برشك عن طاعة بنو عبد الواد بعد الحصارالكبير الذي تعرضوا له من طرف المرينيين، تمكن أبو حمو الأول من استرجاع المناطق التي كانت تحت حكمهم "فخشيه زيري على نفسه وخطب منه الأمان على أن ينزل له عن المصر"ابن خلدون عبد الرحمن،2000: 133/7) لكن أبو حمو الأول أدرك جيدا أن خضوعه يعقبه تمرد، فقرر التخلص منه، وكانت فرصة لأبو زيد عبد الرحمن بن الإمام ليثأر لمقتل والده الذي" كان زيري قد قتله لأول ثورته غيلة"(ابن خلدون عبد الرحمن،2000: 133/7)، فكانت سفارة انتقام لأن أبو حمو أذن له في ذلك فحتى هو كان يعتزم قتله.

كما أرسل بن مرزوق الخطيب سرا من طرف الأمير أبو سعيد ليعقد الصلح مع أبي الحسن المريني(ابن مريم،1908: 185)غير أنه اتخذ هذا القرار دون مشورة أخيه أبو ثابت الذي سجنه وأهانه في مشهد يعبر عن الوجه الآخر للسلطان في علاقته مع المثقف، الوجه الذي يبطش بكل من يقف في وجهه أو يعارضه أو حتى ينصحه، لذلك قبض على ابن مرزوق الخطيب "منتهبا رحله، منتهكة حرمته، وأسكن قرارة مطبق عميق القعر، مقفل المسلك، حريز القفل، ثاني اثنين"(ابن الخطيب لسان الدين،1975: 106/3)وبقي في سجنهم تسعة أشهر(التلمساني محمد بن مرزوق،2008:307)حتى "أيقن الناس بفوات الأمر فيه"(ابن الخطيب لسان الدين،1975: 106/3)ورغم أن السلطة الزيانية قد أفرجت عليه واستعطفته، غير أنه تأثر كثيرا بهذه النكبة فارتحل على إثرها إلى الأندلس(التلمساني محمد بن مرزوق،2008:307).

كما أن أبو حمو ورغم إرساله لإبنه أبو تاشفين على رأس السفارة الموجهة سنة 762ه/1360م لعقد الصلح مع أبو سالم المريني، إلا أنه أرسل معه قاضي الجماعة بتلمسان أحمد بن الحسن "شاهدا على ما يسمع"(مؤلف مجهول،2011: 133) كما أرسل محمد بن أحمد الشريف التلمساني سنة 764ه/1364م في سفارة لعقد الصلح مع أبي إسحاق الحفصي حاكم بجاية، وكان المثقف يحظى بمكانة خاصة لدى

السلطة الزيانية، إذ لما وصل الخبر لأبو حمو بفرار محمد ابن السلطان أبي سعيد ، أرسل رسله ليستعيدوا الشريف التلمساني قبل أن يصل إلى بجاية(بن خلدون يحيى، 2011: 2/126-127)ولما كان هذا الفقيه يحظى بمكانة رفيعة لدى أبو حمو الثاني، فإنه أرسله في سفارة أخرى إلى المغرب سنة 767ه/1365ملاستكمال عقد الصلح مع المرينيين (بن خلدون يحيى، 2011: 159/2)كما أرسله في سفارة أخرى سنة 770ه/1368م إلى خالد بن عامر وأبو بكر بن عريف يحمل أمان أبو حمو لهما(بن خلدون يحيى، 2011: 201/2).

أرسل عبد الرحمن بن خلدون من طرف أبو حمو الثاني سفيرا إلى استئلاف قبيلة الذواودة، غير أنه لم يمتثل لأمره كما يقول "وأجبته إلى ذلك ظاهرا" وانضم إلى أولاد عريف بجبل كزول ولحقت به أسرته، وكان سبب رفضه يعود إلى منعه من دخول تلمسان بعد عودته من الأندلس (ابن خلدون عبد الرحمن،2000: 638/7).

أدى بعض مثقفي المغرب الأوسط أدوار إيجابية خلال الحروب، فبعد معاناة أهل تلمسان لأضرار الحصار المريني سنة 698ه/1298محاول ابن خميس إقناع السلطة الزيانية بالاستسلام والدخول تحت طاعة يوسف بن يعقوب المريني، نستشف ذلك من خلال بعض أبياته الشعرية:

دعاهم أبو يعقوب للشرف الذي يذل له رضوى ويعنو له دمخ
فلم يستجيبوه فذاقوا وبالهم وما لامرئ عن أمر خالقه نخ
وما زلت أدعو للخروج عليهم وقد يسمع الصم الدعاء إذا أصخوا
(المقري أحمد،1968: 373/5)

وهو ما يرجح سبب هروبه من تلمسان،حيث أرجع ابن الخطيب سبب فراره إلى تخوفه منهم(ابن الخطيب لسان الدين،1975: 529/2) ولا يمكن الأخذبذلك إذ ما دعوى هذا التخوف إن لم يكن له سبب يوجبه، فيكون ابن خميس لما رأى هول الحصار وشدائده قد دعى السلطة إلى الرضوخ حفاظا على أرواح ساكنة تلمسان، وهو ما قوبل بالرفض.

كما استغلوا وجاهتم عند السلاطين لتحقيق مطالب في صالح العامة، فبعد إقتحام أبو الحسن المريني لتلمسان سنة 737ه/1336م استدعى مثقفيها وقد كان ابني الإمام من أشهر فقهاء تلمسان أنذاك، فتوسطوا لأهل تلمسان لديه "ووعظوه وذكروه بما نال الناس من النهب" فلم

يكن لأبو الحسن من رد سوى أن "ركب لذلك بنفسه وسكن وأوزع جنوده وأشياعه من الرعية، وقبض أيديهم عن الفساد"(ابن خلدون عبد الرحمن،2000: 341/7)، ولما كان السلطان أبو فارس المريني محاصرا لتلمسان، خرج إليه عبد الرحمن السنوسي وابن عبد العزيز مع الأولاد الصغار " بألواحهم يطلبون من السلطان أبي فارس العفو عن أهل البلد" (ابن مريم،1908: 79-80).

المثقف وتجاذبات الحرب:

إذا كانت أنماط المثقفين تنقسم إلى طبقات بحسب أهمية ودور كل واحد في نظر السلطة، فإن السلطة الزيانية كغيرها من السلطات التي سبقتها والمعاصرة لها سارت على نفس النهج، فإذا كان المثقف التقليدي الذي كانت له أدوار هامشية في المجتمع لم يحظى بالتفاتة من البلاط الزياني، فإنه على العكس من ذلك، فقد حظي المثقف المنسَق كما سماه إدوارد سعيد باهتمام منها، لا لشيئ سوى أنه يشكل بالنسبة للسلطة جزء من مشروع سياسي يروم توظيف المثقف في تحقيق مصالحها وأهدافها، والسعي الحثيث لتحقيق واكتساب المزيد من الشرعية (سعيد إدوارد،2006: 33-34).

وبإلقاء نظرة على سير بعض المثقفين البارزين خلال الفترة مدار الدرس نجد أنهم قد انخرطوا في تجارب كانت في أكثر الحالات تكشف جوانب خفية من شخصياتهم، جوانب لا نجد لها ذكر في كتب التراجم التي حلتهم بأحسن الأوصاف، بينما إذا وضعنا هذه المواقف في ميزان النقد الموضوعي فإننا نجد أن البعض من هؤلاء المثقفين الذين كانوا على قدر كبير من العلم قد اتبعوا نزواتهم الشخصية، فكانوا دنيويين أكثر مما كانوا ربانيين، فرغم أن أبو الحسن التنسي وصفه يحيى بن خلدون بأنه "من كبار العلماء العاملين"(بن خلدون يحيى، 2011: 151/1)إلا أننالا نراه كذلك، فرغم أنه كان معظما عند السلاطين إلا أنه لم يرق له حال لأهل تلمسان القابعين تحت الحصار الوحشي من طرف المرينيين، ورغم أن مغادرته لتلمسان بسبب تهمة من طرف البلاط الزياني، إلا أنه لم يكن في مستوى تطلعات عامة تلمسان التي كانت تعظمه، فخلط بين السلطة والعامة التي كانت تعاني أنذاك، فلم يقاوم بر وإكرام السلطان المريني أبو يعقوب (بن خلدون يحيى، 2011: 151/1)، ولم يجد " الفقهاء وأرباب الفتيا" بتلمسان

حرجا من الوقوف في صف المنتصر، بعدما قبض أبو عنان على الأمير أبو سعيد الزياني، وأصدروا فتوى " بحرابته وقتله"(ابن خلدون عبد الرحمن،2000: 381/7).

كما لم يجد المثقف حرجا من تغيير الولاء بين البلاطات الثلاث، فالتجوال السياسي ميز مسيرة الكثير من هؤلاء، على غرار ابني الإمام اللذين كانا في البلاط الزياني وغيرا الولاء إلى المرينيين دون تحرج، هذا لأن منصب القضاء الذين تولياه بمليانة تحت الحكم المريني (ابن خلدون عبد الرحمن،2000: 133/7) هو منصب سياسي بالدرجة الأولى وبالتالي فلا نزايد عليهما أو نحملهما تهم من نسج الخيال.

ونفس الأمر حدث مع يحيى بن خلدون كاتب أبو حمو الثاني، الذي انخزل عنه في سبخة زاغر وهو مطارد من طرف العرب بقيادة الوزير المريني أبا بكر بن الغازي، وعاد إلى تلمسان،حيث يقول "ومن هنا فارقته أيده الله لخيالات سوداوية اعترتني، ونزغات شيطانية تجاذبتني، وسوء بخت تقاعس عن إدراك الفخر برحلي، وشقاء مكتوب أهوى إلى درك الخسارة بي"(بن خلدون يحيى، 2011: 230/2) فما هو سبب تغيير ولائه المفاجئ هذا؟ للأسف لم يذكر لنا سبب تصرفه هذا، أو بالأحرى أي سبب سيجعله يغير الولاء سوى ذهنية التجوال السياسي السائدة أنذاك في أوساط النخبة والقبائل، لم يكن هناك سبب مقنع يجعله حجة له فاكتفى لنا بقول غامض ليس ورائه أي حجة تحفظ ماء وجهه، فقال " ولولا أن أفضح مستورا، وأخلد في بطون الأوراق وصما مشروحا، لأبنت وقلت كيف كان" (بن خلدون يحيى، 2011: 230/2).

وانضم إلى البلاط المريني بتلمسان ثم انتقل معهم إلى فاس عقب وفاة الأمير المريني عبد العزيز سنة 774ه/1372م ومكث سنتين ليقرر بعدها العودة إلى بلاط أبو حمو الثاني، خصوصا أن صديقه لسان الدين بن الخطيب قد قتل في سجنه، فهل كان أبو حمو سيستقبله مرة أخرى وهو الذي خانه إن صح التعبير؟ أو بعبارة أخرى لماذا يقبل بعودته؟ يمكن تفسير ذلك في أن أبو حمو الثاني ليست المرة الأولى التي يتم خيانته فيها، ففي ظل حالة الحرب الشبه دائمة كان الولاء غير

ثابت، فكثير من القبائل العربية فعلت معه نفس الأمر ثم عادت، لأن المهم أنذاك هو تحقيق المصلحة.

أثر الحرب في المنتوج الثقافي:

يرتبط المنتوج الثقافي بما ينطوي عليه من حمولة معرفية إرتباطا وثيقا بالظروف التي يكون بها الأثر البارز في إنتاج الأنساق المعرفية، إضافة إلى ذلك فإن المعرفة لها مايمكن تسميته بالعلاقة الجدلية مع أنساق تكوينها، وكذا واقع الظروف السياسية والثقافية التي ينشأ عنها الخطاب الثقافي، وعليه فإن وجود الحرب خلال معظم فترات الدولة الزيانية لاشك وأنها انطبعت في ذهنية المثقف ولعبت دورا كبيرا في تحديد مفاهيمه المعرفية ومصطلحاته (تيتاو حميد،2009: 445) كيف لا ومنطق السيف انطبع ليس على السلطة السياسية التي يعتبر من طبيعتها، بل حتى على مستوى القبائل، في معادلة ترتبط فيها البيئة ومكوناتها وأثرها على الإنسان والحاجات المادية له، والمطلع على المصنفات التي ألفها علماء المغرب الأوسط يجد أن الحرب والتنظير لها قد كان له نصيب وافر في مؤلفاتهم، ولعل من أبرزها مقدمة ابن خلدون، وواسطة السلوك في سياسة الملوك لأبو حمو موسى الثاني، واللذين سنحاول لملمة المعلومات التي تطرقا إليها فيما يتعلق بموضوع الحرب:

مستويات التنظير للحرب في مقدمة ابن خلدون:

بداية نطرح سؤال على أنفسنا: هل نظر ابن خلدون للحرب كعامل منفصل عن ما سماه بعلم العمران؟ أو بعبارة أخرى كيف كانت رؤيته للحرب وارتباطاتهاالاقتصادية والسياسية؟ إن المتمعن في المقدمة يلحظ جيدا أن الحرب حاضرة في مقدمة ابن خلدون أو بعبارة أخرى حضورها كان تفسير منه لعدة أحداث، فكانت كما يقول عبد الله العروي "كل شيئ مهم مما يمس الحرب، موجود ضمنيا في أبواب المقدمة، وفي نفس الوقت لاشيئ من ذلك موجود صراحة في المكان المقرر له"(العروي عبد الله،2012: 323)بمعنى أن ابن خلدون بنى نظريته للعمران على مبدأ عدوانية الإنسان سواء في دوافعه الكامنة في نفسه، أو في تصرفاته(العروي عبد الله،2012: 326).

تجدر بنا الإشارة إلى ملاحظة مهمة جعلها ابن خلدون في نمط تلازمي تحتل فيه الحرب مكانة أساسية، ففي خضم حديثه عن

ضرورة الإجتماع الإنساني، تطرق إلى أهمية هذا الإجتماع ليس لتحصيل الغذاء فقط، بل للدفاع عن نفسه، لأن الحروب "لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله"(ابن خلدون عبد الرحمن،2004: 457/1)وقد حصر هذه الحروب في ثلاثة دوافع، "إما غيرة ومنافسة، وإما عدوان، وإما غضب لله ودينه"(ابن خلدون عبد الرحمن،2004: 457/1).

فالعدوان أعطى مثالا عنه ما كان واقعا في عصره وأعطى مثالا عن ذلك بطبيعة العرب البدوية الذين كانوا يعيشون على النهب والسلب والغارات على أهل البسائط (ابن خلدون عبد الرحمن،2004: 286/1)"فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس، وأن رزقهم في ظلال رماحهم، وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه، بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه"(ابن خلدون عبد الرحمن،2004: 287/1) على أن هذا الدفاع في صفة الإجتماع الإنساني مرتبط بقدرة الإنسان على الإبداع في وسائل الدفاع عن النفس، فهذا الإجتماع الإنساني ليس في حد ذاته غاية، بل هو وسيلة، لأنه إذا "كان العدوان طبيعيا في الحيوان جعل لكل واحد منها عضوا يختص بمدافعته ما يصل إليه من عادية غيره، وجعل للإنسان عوضا من ذلك كله الفكر واليد، فاليد مهيئة للصنائع بخدمة الفكر، والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع، مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة، والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة، والتراس النائبة عن البشرات الجاسية"(ابن خلدون عبد الرحمن،2004: 137/1-138)ولهذا كان ضروريا الإجتماع للدفاع المشترك.

وإذا كان حدد إبداع الإنسان في صناعة أسلحة للدفاع عن نفسه كغاية من غايات الإجتماع الإنساني، فإن هذا يفتح باب اخر للعدوان الداخلي بين هؤلاء البشر، بسيطرة القوي على الضعيف، أو كما سماها توماس هوبس حرب الكل ضد الكل، من هنا وجب إنشاء سلطة تكون لها الغلبة وتفرض النظام داخل الجماعة، وهنا نستنتج أن ابن خلدون جعل الحرب سببا من أسباب تأسيس الدول (ابن خلدون عبد الرحمن،2004: 138/1)، كما أنها تكون سببا لزوالها وذلك نظرا لما يقع من التنافس بين مختلف العصبيات والقبائل على الملك "ثم إن

الملك منصب شريف ملذوذ، يشتمل على الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية، والملاذ النفسانية، فيقع فيه التنافس غالبا، وقل أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه، فتقع المنازعة وتفضي إلى الحرب والقتال والمغالبة، وشيئ منها لا يقع إلا بالعصبية كما ذكرناه آنفا"(ابن خلدون عبد الرحمن،2004: 308/1).

الحالة الطبيعية التي تحدث عنها ابن خلدون وانتشار الفوضى التي تؤدي إلى عدوان البشر على بعضهم البعض تكون في البدو لأنه هو الأصل كما قال، وبتأسيس الدولة يتغير نمط الدفاع، بحيث يتولى السلطان هذه المهمة بما يكونه من جيش وما ينشئه من أسوار للدفاع عن المدينة، فيحدث بذلك تغير في ذهنية سكان الحضر، فإنسان ما قبل تأسيس الدولة، يتولى بنفسه مهمة الدفاع عن نفسه، لذلك وضع فصلا عنونه "في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر" مرجعا سبب ذلك إلى حالة الدعة والسكون التي يتميز بها ساكنة الحاضرة بسبب توكيلهم أمر الدفاع إلى السلطان، بينما أهل البدو "لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي، وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الأسوار والأبواب، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم"(ابن خلدون عبد الرحمن،2004: 251/1) وفي هذه الحالة يكون البدو أقدر في التغلب على الأمم نظرا لربطه الوثيق بين البداوة والشجاعة (ابن خلدون عبد الرحمن،2004: 271/1).

على أن صاحب العصبية الذي تكون له الغلبة ويتولى تنظيم الأمور ليمنع عدوان الناس بعضهم على بعض لا يقوم بذلك دون غاية، بل يسعى إلى الملك كما يقول "وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب مافوقها، فإذا بلغ رتبة السؤدد والإتباع، ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه لأنه مطلوب للنفس"(ابن خلدون عبد الرحمن،2004: 272/1) كما ربط بين الوحشية والحرب باعتبار أن الأولى عامل مهم ومساعد لخوض الحروب والتغلب فيها لتحقيق الغلبة (ابن خلدون عبد الرحمن،2004: 280/1).

ولم يغفل ابن خلدون في خضم حديثه عن الحرب في الإشارة إلى ما يعين المحارب على خوض المعارك وبالأخص على الجانب النفسي، فالسلطان إذا كان طبيعيا أن يتخذ شارات الملك الخاصة به، فإن ابن

خلدون سلط عليها الضوء من الناحية السيكولوجية، فالطبول والألوية والرايات هي جزء من الجيش، ويقول عنها ابن خلدون "ولعمري إنه أمر وجداني،في مواطن الحرب، يجده كل أحد من نفسه... وأما الحق في ذلك فهو أن النفس عند سماع النغم والأصوات، يدركها الفرح والطرب بلا شك، فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب، ويستميت في ذلك الوجه الذي هو فيه"(ابن خلدون عبد الرحمن،2004: 443/1)، ففي حروب العرب "من يتغنى أمام الموكب بالشعر ويطرب، فتجيش همم الأبطال بما فيها ويسارعون إلى مجال الحرب" وفي زناتة نفس الأمر " يتقدم الشاعر عندهم أمام الصفوف، ويتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسي" ويسمون هذا الغناء تاصو كايت (ابن خلدون عبد الرحمن،2004: 443/1).
وفي فصل بعنوان "في الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها" تحدث إلى مجموعة من الأمور المتعلقة بالحرب، من قبيل طرائق القتال، فهناك القتال بالزحف ويكون عن طريق وضع صفوف مرتبة وهذا دأب الجيوش النظامية التي تقاتل بطريق المواجهة المباشرة، والتي كانت تقسم في معظمها إلى ميمنة وميسرة والقلب والساقة (ابن خلدون عبد الرحمن،2004: 457/1-458) والنوع الثاني هو قتال الكر والفر أو حرب العصابات، وقد كان هذا النمط من القتال منتشر بكثرة في عهده (ابن خلدون عبد الرحمن،2004: 458/1) ، فنظرة خاطفة على مصادر التاريخ السياسي للدولة الزيانية تبين لنا الكم الكبير للغارات التي كانت تشنها القبائل العربية والبربرية على بعضها البعض، كما بين أن الإنتصار في الحروب لايتحكم فيها كثرة عدد الجنود أو قوة الأسلحة فقط، مرجعا أن ترجيح كفة المعركة قد يكون بأمور خفية كالأمور السماوية " لاقدرة للبشر على إكتسابها تلقى في القلوب، فيستولي الرهب عليهم لأجلها،فتختل مراكزهم فتقع الهزيمة"(ابن خلدون عبد الرحمن،2004: 465/1).

خاتمة:

خلاصة القول أن المثقف وجد نفسه ملزما على التعامل مع الوضع الأمني السائد، فالسلطة الزيانية على غرار السلطتين الحفصية والمرينية استخدمت العلماء كسفراء في عقد المعاهدات بينهم، والحال أن الحرب قد كان لها أثر سلبي على المثقف الذي كان في الكثير من

المرات ضحية للصراع الدائر، فقد كشفت علاقاتهم مع السلطة خوضهم تجارب تنم عن طموح للمناصب، وهو ما ترجم في التجوال السياسي لهم بين البلاطات الثلاث بحثا عن منصب يرضي لهم طموحهم، إلا أن الكثير كانوا ضحايا لهذا الطموح الزائد، والجدير بالذكر أن الحرب لاقت لها انعكاسا في المنتوج الثقافي فقد رأينا أن قلم المثقف راح ينظر للحرب وأنواع الزحف وترتيب الجيوش وغيرها من التفاصيل المتعلقة بظاهرة الحرب.

قائمة المصادر والمراجع:

ابن الخطيب لسان الدين (1975)، الإحاطة في أخبار غرناطة،ج3، ، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1975،ص106.

ابن خلدون عبد الرحمن (2004)، المقدمة،ج1،دمشق ،دار يعرب.

ابن خلدون عبد الرحمن، (2000)العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،ج7، بيروت، دار الفكر.

ابن خلدون،(2011) بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج2، الجزائر،عالم المعرفة.

التلمساني محمد بن مرزوق (2008)، المناقب المرزوقية، المملكة المغربية، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

تيتاو حميد، (2009)الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العصر المريني، المملكة المغربية، مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود.

سعيد إدوارد، (2006)المثقف والسلطة،القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة.

العروي عبد الله،(2012) مفهوم العقل،ط5، المغرب، المركز الثقافي العربي.

المقريأحمد، (1968)نفح الطيب،ج5 ،بيروت،دار صادر.

المليتي ابن مريم، (1908)البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، الجزائر، المطبعة الثعالبية.

مؤلف مجهول،(2011) زهر البستان في دولة بني زيان،الجزائر، عالم المعرفة.

للإحالة على هذا المقال:

- محمد ناصري، خالد بلعربي، (2021)، « الحرب والمثقف بالمغرب الأوسط خلال العهد الزياني ». **المواقف**، المجلد: 17، العدد: 01، جويلية 2021، ص. ص 608- 620.